د . طيب تيزيني

ملاحظـات حول

مفهوم الحضارة لدى زكي نجيب محمود

في الندوة التي انعقدت في الكويت في الفترة ما بين ٧ ـ ١١ نيسان ١٩٧٤ تحت شعار « ندوة ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي » ، القى الدكتور زكي نجيب محمود (موفدا من مؤسسة الاهرام ـ القاهرة) محاضرة افتتحت بها الندوة ، وكانت بعنوان « الحضارة وقضية التقدم والتخلف » .

وقد شارك في الندوة صاحب هذه المقالة .

واذا كانت محاضرة الدكتور محمود قد قامت ، في رأيي ، على اساس تعوزه الحقيقة الموضوعية ، فاني اجد في ذلك مناسبة للكتابة في هذا الموضوع ، بهدف الاسهام في تعميق بعض النتائج الايجابية التي خرجت بها الندوة .

الدكتور زكي نجيب محمود يعمل في بحثه على الوصول الى الحلقة التي يرى انها اساسية من اجل تحديد « الحضارة » . فهو يكتب : « فما هي الصفة .. التي تجمع الى كونها ضرورية للحضارة ان تكون كذلك كافية لتعريفها ؟ وهي انما تكون كافية ، اذا امتنع ظهورها من كل حياة اخرى ، ما يتفق الناس على انها ليست في عداد الحضارات» .

وهو لكي يصل الى تلك « الصفة » الضرورية والكافية ، يعمل على اكتشاف القاسم المشترك بين اربع حضارات لا يظن « احدا يجادل في رفعة حضارتها ، وهي : اثينا في عهد بركليز في القرن الخامس قبل الميلاد ، بغداد في عهد المأمون في القرن التاسع ، فلورنسه في القرن الخامس عشر ، باريس في عصر التنوير ابان القرن الثامن عشر » . ونتيجة بحث في عوامل التكوين الحضاري ، يصل الدكتور زكي نجيب محمود الى ان « القاسم المشترك الذي نراه في تلك النماذج الاربعة جميعا ... ، هو الاحتكام الى العقل وحده في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه » .

وحين يتساءل عن ماهية « هذا الذي نسميه عقلا » ، يجيب انه « ببساطة شديدة ذلك النمط من انماط السلوك ، الذي يتبدىء عندما نحاول رسم الطريق المؤدية الى هدف اردنا بلوغه . فليس الهدف المختار في ذاته « عقلا » لانه وليد الرغبة وحدها ، وليست النقطة التي ابدا منها السير على الطريق « عقلا » لانها مبدا مفروض ، اما « العقل » بمعناه الدقيق فهو ... رسم الخطوات الواصلة بين هذا المبدا المفروض من جهة ، وذلك الهدف المطلوب من جهة اخرى » .

ف « سلطان العقل ـ اذن ـ هو مدار القياس لدرجات الحضارة ». وكذلك « فالاولوية في البناء الحضاري للعقل وفكره » .

ويرى الدكتور زكي نجيب محمود ان « ما بني على العقل .. ثابت على الدهر لا يزول ، ولذلك كان محالا علينا ان نحكي تاريخا للحضارة متسلسل الحلقات ، صاعد الخطوات ، الا اذا تعقبنا ما انتجه العقل ، لان نتاجه ـ دون اي نتاج آخر ـ هو الذي يظل يكمل نفسه عصرا بعد عصر .. ، واما الفن واما الادب وغيرهما من كائنات العالم الوجداني في الانسان ، فلا يأتي الجديد ليعلو درجة على القديم ، بل ربما حدث ان تفوق القديم على الجديد .. ان هذا التتابع الضروري لا يتحقق الا في ميدان العلوم ، التي هي رمز للعقل ونتاجه » ، اما « الاداب والفنون فكلمة « التقدم » بالنسبة اليها ليست بذات معنى » .

هذه هي ـ بتكثيف ـ وجهة النظر الاساسية للدكتور زكي نجيب محمود فيما يخص الحلقة الاساسية « الكافية والضرورية » لبناء الحضارة .

ولقد تصدى بعض المفكرين الذين اشتركوا في الندوة (مثل محمود امين العالم وسهيل ادريس) لوجهة النظر هذه ، ولكن بسبب اتساع حجم المهمات التي طرحت امام المنتدبين ، بالاضافة الى ضيق الوقت ، لم يكن ممكنا ان تمنح هذه المسألة حيزا كبيرا من جلسات الندوة .

ولم تفتني الفرصة ،اذ كنت احد الذين تصدوا لتلك المسألة . وانا اعمل الان على صياغة ما كنت قد طرحته في الندوة ، على نحو يفطي القضية بالحدود الممكنة .

* * *

لقد اخذت معالم « الحضارة » الانسانية تطرح نفسها بشكل اولي ، حينما اكتملت عملية استقلال الانسان عن شروط الضرورة والكفاية الاقتصادية المباشرة في ابعادها الاولى الجنينية . وقد تم هذا الامر في الوقت الذي اخترع فيه الانسان ادوات عمل منفصلة عنه ، بعد ان كان فيما سبق (في مرحلة انتقاله من المجموعات الحيوانية

الى صيغته الجسدية المتميزة بانتصاب القامة ، وبالقدرة على مسك الاشياء وصنعها . وبنمو قدرته العقلية في اطار نشوء لغة تفاهم اولية بسيطة) يعتمد اعتمادا اساسيا على بنيته الجسدية ، من متانة في قامته واحتداد في قواطعه وطول وغلاظة في شعره الخ ...

بمعنى فلسفي نقول ان الخطوة الاولى في عملية البناء الحضاري الانساني كانت مرهونة بتحول الانسان الى ذات ، اي بنشوء ذات متميزة نسبيا عن الموضوع . ان هذه « الذات » هي في الحقيقة ، كما يبدو حصيلة منفردة على نحو واضح من حصيلات التحول والتقدم الذي لحق بذلك « الموضوع » ، الذي هو العالم الطبيعي .

ولكن مع تحقق هذه العملية ، لم تتكون الا الخلفية الاولية وغير المباشرة للبناء الحضاري الانساني . ذلك لان الانسان ظل هنا (اي في ما ندعوه بالمجتمع المشاعي البدائي) خاضعا لما عبرنا عنه فوق بشروط الضرورة والكفاية الاقتصادية المباشرة .

من هذا المنظور المنهجي المادي التاريخي تتكشف لنا المعالم الاساسية للخطأ التاريخي والمعرفي الذي يرتكبه زكي نجيب محمود في تحديده للواقع الحضاري . اذ ان « العقل » الذي يمثل جانبا اساسيا من جوانب الحضارة الانسانية ، وبالتالي قوة دافعة في سبيل هذه الحضارة ، يحول على يدي الدكتور محمود الى العامل الضروري والكافي لها .

ان بناء الحضارة الطبقية لم يتم اولا على اساس من تطور وتقدم العقل ، وانما هذا الاخير تطور وتقدم في اطار التغير الاساسي الذي شمل نوعية وكمية ادوات العمل . طبعا ، الحديث هنا عن علاقة جدلية بين كلا الطرفين ، ادوات الانتاج والعقل ، امر صحيح . وذلك انطلاقا من العلاقة الضرورية الجدلية بين « الموضوع » و « الذات » .

بيد ان هذا امر ، والقول بان العقل هو الشرط الضروري والكافي للبناء الحضاري ، امر آخر . نحن لا نقول بان العقل حصيلة ميكانيكية للتطور الذي لحق بأداة العمل ، انما نقول انه حصيلة هذا التطور الموضوعي الذي كان هو ـ العقل ـ طرفا فيه .

ان « الذات » الانسانية تنطوي بطبيعة الحال على العقل. وبالتالي فهذا الاخير يدخل على كل حال في اطار عملية التصدي لـ«الموضوع» .

ان عملية التصدي تلك تمت وتتم عبر ادوات العمل ، التي تشكل ، ضمن هذا المنظور ، « استطالات » للذات الانسانية . وهي استطالات ذات اهمية جوهرية مبدئية ، لانه بمعزل عنها لا يمكن لعملية التواصل بين الذات والموضوع ان تتحقق .

بالاضافة الى ذلك ، ينبغي الاشارة الى ان « الموضوع » هو بالاصل « المادة الخام » ، اي غير المصنعة ، غير المؤنسنة . ذلك لانه في الحين الذي يدخل فيه التأثير الانساني في العالم الخارجي « الخام » والموجود على نحو موضوعي ، تنطلق عملية أنسنة هذا العالم ، اي تحويله الى « موضوع » .هكذا تكتشف العلاقة الضرورية الجدلية بين الموضوع والذات (هذه الذات التي يشكل فيها العقل جزءا اساسيا الى جانب السلوك العملي والمشاعر والعواطف) .

ليس هنالك اسبقية لواحد من الطرفين على الآخر .كلاهما ضروريان لاستكمال عملية التكوين الحضاري . ومن هنا يبدو الحديث عن ان « العقل » هو العنصر الكافي والضروري لبناء الحضارة ، مجرد عن اي معنى حقيقي . لقد كان انتقال الانسانية من المجتمع المشاعي البدائي (مجتمع الكفاف والضرورة الاقتصادية المباشرة) الى المجتمع الطبقي (مجتمع الفيض الانتاجي والثقافي) هو الشرط الضروري والكافي لبناء الحلقة الاولى في طريق الحضارة . اذ ان « الفيض » هو في حقيقة الامر المظهر الحقيقي لتجاوز الانسان القيد الطبيعي تجاوزا حاسما بالحد الضروري .

والامر الذي ينبغي التركيز عليه ، هو ان ذلك « الفيض » فيض في الانتاج المادي وفي الانتاج العقلي الروحي . وقد تم هذا الوضع في حدوده الاولى حينما اتيح للانسان ـ عبر التقدم الذي لحق بادوات العمل والذي كان اكتشاف المعادن والنار قد لعب دورا خطيرا في دفعه الى امام ـ ان يتجاوز الوضع المتميز بالانتاج لـ « الاستهلاك » الى الوضع المتميز بالانتاج ليس فقط للاستهلاك ، وانما كذلك لـ « الانتاج » ، اي حينما تحول الانتاج الى هدف بذاته .

لقد فاد ذلك الوضع الى خلق الخطوات الاولى على طريق انقسام النشاط الانساني الى واحد « فكري » واخر « يدوي » او « جسدي ». وكان هذا قد كون الصيغة النظرية والعملية للتحول الحضاري في شكله الاول . ان « العقل » قد نشأ هنا متمتعا بقوة . اخذت تبرز شيئا فشيئا عبر استقلاله نسبيا عن الواقع العياني . ولقد كان ذلك في الحقيقة البدايات الضرورية لانبثاق اشكال جديدة من الوعي الاجتماعي، مثل الفلسفة والعلوم ، وان كان ذلك بالنسبة لهذه العلوم لا يدخل الا في نطاق بسيط جدا بسبب ان الفلسفة برزت في صفتها الحكمية الموسوعية .

ان الفلسفة المثالية والفلسفة المادية على حد سواء وجدتا في انقسام العمل ذاك مصدرا رئيسيا من مصادرهما النظرية . بيد ان المثالية منهما استطاعت عبر ذلك ان تقلب عنق الواقع . فهي ، اذ تنطلق من ان الفكرة (او المثل لدى افلاطون) هي الوجود الحق وان الواقع لا يمثل في احسن الحالات الا وجودا في حدود الامكان ، تكون قد خلقت حجابا كثيفا بين « الفكرة » ومصدرها « الواقع » .

ان الطاولة ، في رأي افلاطون مؤسس الفلسفة المثالية الموضوعية، لا تتمتع بوجود فعلي . اما الذي يتمتع بهذا الوجود فهو « الفكرة » عن الطاولة . والحقيقة لكي نفهم هذه المسألة ببعدها الدقيق ، علينا ان نضعها في الاطار الذي تكونت فيه عموما ، وهو انقسام العمل الى فكري ويدوي ، اولا ، وفي اطار تصنيف هذا العمل بشكليه المشار اليهما ضمن المجتمع الطبقي الوليد (المجتمع اليوناني العبودي مثلا) . فالعمل الفكري جعل منه ليس فقط المظهر الكافي والضروري للحضارة (قارن : زكي نجيب محمود فيما سبق) ، وانما كذلك الينبوع والمصدر الحقيقي للوجود الحق عموما .

هكذا زيفت العلاقة بين الفكر والواقع على نحو فلسفي مشروع في اطار التطور الطبقي الحضاري في حينه ، وبقي هذا التزييف على نحو عام يخدم حتى الآن العداء للعلم وللتقدم الاجتماعي ، خصوصا في البلدان الرأسمالية الصناعية .

وعلى هذا الاساس من الفهم للامور ، يبدو لنا بمزيد من القناعة العلمية الخطأ الرئيسي التاريخي والمعرفي الذي يحيط بوجهة النظر التي يطرحها زكي نجيب محمود حول « الحضارة » .

* * *

بيد ان التصدي لوجهة النظر تلك يستتبع كذلك التعرض الى

جانب آخر من مسألة البناء الحضاري ، ان هذا الجانب يتعلق بالتمييز الدقيق والعميق بين مرحلتين رئيسيتين في وجود الطبقات الاجتماعية التي تكونت في التاريخ وما زال قسم آخر منها موجودا في عصرنا الراهن . المرحلة الاولى هي مرحلة الصعود او النهوض للطبقة. وهنا تمثل هذه الطبقة قوة اجتماعية تاريخية تقدمية ، تكمن تقدميتها في انها تحقق تطابقا جديدا على هذا النحو او ذاك بين قوى الانتاج (الانسان المنتج ، اداة الانتاج ، موضوع الانتاج) وعلاقات الانتاج (علاقات الملكية والتبادل والتوزيع) ، وفي انها تدفع حركة التطور للبنية الفوقية (الوعي الاجتماعي بجميع اشكاله والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والعلمية ...) بهذا القدر او ذاك الى امام .

فطبقة السادة في اليونان القديمة قامت في مرحلتها الاولى ، مرحلة الصعود ، بتحقيق تلك المهمة بشكل خلاق يدعو الى الدهشة . وكذلك الطبقة الاقطاعية ، ثم الطبقة البورجوازية الحديثة بشكل خاص .

اما المرحلة الثانية في وجود الطبقة الاجتماعية (طبعا في اطار المجتمع الطبقي) فهي مرحلة الانحسار والانحطاط . وهنا تدخل قوى الانتاج في تعارض عميق كثيرا او قليلا مع علاقات الانتاج ، وتنحط اشكال الوعي الاجتماعي ، خصوصا تلك التي تدخل في نطاق الايديولوجية ، من فن واخلاق وفلسفة ودين وعلوم اجتماعية . فتكتسب هذه الاشكال وظيفة التبرير والتكريس اللاعقلاني واللاعلمي لما هو قائم .

وقد ينمو التكنيك والعلم الطبيعي في هذه المرحلة ، كما هو الحال مثلا في الولايات المتحدة الاميركية . ولكن هذا النمو يشكل من طرف آخر شبحا هائلا مضادا للتطور الاجتماعي الانساني في البلد المعني وفي العالم كله (كما يظهر ذلك في الحروب الاستعمارية) . بمعنى اخر ، ان مثل ذلك النمو لا يقدم دليلا على تطور حضاري في هذا البلد او ذاك ، الا اذا كان جزءا من نمو حضاري يشمل علاقات الانتاج والبنية الفوقية . هاهنا يبرز العقل جزءا من اجزاء البناء الحضاري ، او لنقل، المظهر العقلي فقط لهذا البناء . وهو في الحقيقة كذلك ، اي احد مظاهر ذلك البناء ، لانه يمثل حصيلته ومظهره في آن واحد .

ان الدكتور زكي نجيب محمود ، وهو الوضعي الليبرالي ، لا يستطيع ان يكتشف الحضارة في اطارها التاريخي ، لانه ينطلق ـ شانه شان الوضعيين ـ من ان تحليلا علميا للتاريخ والمجتمع في كلياته وجزئياته ، لا يدخل في نطاق البحث العلمي « الخالص » .

اما ما يخص قوله بأن الامة العربية لا يسعها الا ان تأخذ بمعالم الحضارة في نموذجها الغربي ، محتفظة في نفس الوقت بالافكار والعقائد التي اكتسبتها عبر تاريخها الطويل ، فانه من الضروري كذلك ان نشير الى انه يخلق حدا فاصلا مصطنعا بين التقدم في العلوم الطبيعية العقلية وبين الاشكال الفكرية التي تدخل في نطاق الحياة الوجدانية . فالفن والشعر لا يتقدمان ، برأيه ، وان كانا يتطوران . وتطورهما هذا لا يعني ان الاشكال اللاحقة تضاهي الاشكال القديمة ، وانما يعني ان تلك الاشكال الاولى والثانية لا نستطيع ان نصنفها تصنيفا تاريخيا يدخل في نطاق التقدم .

ان زكي نجيب محمود لا يكتشف هنا الوظيفة المعرفية للفن والشعر، وبالتالي لا يدرك انهما خاضعان ايضا ، من خلال هذه الوظيفة ومن خلال تشابك هذه الاخيرة مع النسق الجمالي لهما ، للتقدم التاريخي.

كلمة اخيرة تتعلق بالبناء الحضاري في الوطن العربي ، وقد كان هذا الامر موضوع الندوة التي اشرنا اليها فوق .

ان الوطن العربي لم ينجز في التاريخ الحديث ثورة بورجوازية تحتوي مهمات ثلاثا، مهمة التحويل الاجتماعي الانتاجي ، ومهمة الوحدة القومية العربية ، ومهمة التحويل الثقافي . وقد حدث هذا نتيجة التواطؤ الذي عقد بين الاستعمار ـ تلك الظاهرة التي نشأت في القرن التاسع واوائل العشرين كحلقة نهائية للوجود الرأسمالي ـ والاقطاع الداخلي الذي خلف وراءه مرحلة تاريخية جديدة استمرت على الاقل من القرن الحادي عشر حتى التاسع عشر . وكانت وما تزال مهمة هذا التواطؤ اجهاض ثورة بورجوازية عربية . وكان ذلك .

وحينما نطرح قضية التطور الحضاري بالمعنى الواسع في اطار الوطن العربي ، لا يسعنا الا ان نؤكد على ان اشلاء الطبقة البورجوازية العربية الهجينة لم تستطع ان تخلق مرحلة نهوض وصعود اساسية ، تتيح لنفسها عبرها ان تثور المجتمع العربي .

ولذلك فتجاوز هذا الوضع المسدود الآفاق في اطار ذلك الوجود البورجوازي الاقطاعي الهجين . اصبح امرا داخلا اولا واخيرا في نطاق ثورة اشتراكية تحقق على طريقتها الخاصة مهمات الثورة الاجتماعية الانتاجية الصناعية ، والوحدة العربية والثورة الثقافية .

دراســـــات ادبيـــة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحـواء	د . زكي مبـارك
من ادبنا المعـاصر	« «	التكسب بالشعـر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفـران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خـوري	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمـة	صلاح عبدالصبور	بابا هممنغـواي	أ . ا . هوتشنر